الغلاف

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

لبنان وأميركا والتاريخ المعقّد: وساطات، تعليم، قنابل، عقوبات

من القرن التاسع عشر وصولا الى مهمات المبعوث الاميركي توم براك الحالية، لم تتسم العلاقات بين لبنان والولايات المتحدة باستقرار طويل، ولا باهتزاز دائم، لكنها تاثرت بالتقلبات الاقليمية كقطع العلاقات مع الدولة العثمانية قبل مئة عام، وبالاوضاع الداخلية في لبنان كما جرى خلال الحرب الاهلية، وبمصالح اسرائيل اولا وحروبها على اللبنانيين

ليست صدفة بالتأكيد التي اتت بمبعوثين خاصين من واشنطن الى لبنان، من اصول لبنانية، هما فيليب حبيب وتوم براك، وهو ما يفترض ان يظهر الولايات المتحدة كحريصة على لبنان، برغم ان المصالح الاميركية تبقى هي الاولوية بالنسبة الى واشنطن، سواء في لبنان نفسه، او في إطار المشهد الاقليمي الاوسع.

من اللافت ان ايا من الرؤساء الاميركيين المتعاقبين، لم يزر لبنان منذ استقلاله، رغم ان رئيسين اميركيين زارا دمشق، وحط رؤساء الولايات المتحدة مرات عديدة في عواصم دول المنطقة، خصوصا اسرائيل بالطبع، لكن ايضا القاهرة وشرم الشيخ وطهران عندما كان نظام الشاه قائما، اضافة الى الرياض وبغداد والكويت وعمان وانقرة وغيرها. لكن بيروت ظلت خارج خارطة زيارات الرؤساء الاميركيين. وعندما كانت تقتضي الضرورة، او تسمح الظروف والمصالح السياسية والامنية، فان واشنطن اوفدت مثلا الوزراء وارن كريستوفر، ومادلين اولبرايت وكوندليسا رايس.

ان التوجه الاميركي نحو لبنان والذي بدأت ملامحه الاولى في العام 1833 مع تعيين وكيل قنصلي في بيروت، بدا كجزء من سياسة التحول الاميركية من الانغلاق النسبي، الى الانفتاح على العالم خلال القرن 19، بعدما انتهت من حربها الاهلية وبدأت تتصرف كقوة عظمى عالمية، تمكنت من تحقيق ازدهار اقتصادي وصناعي هائل، وبات يحتاج الى حضور اكبر للولايات المتحدة على الساحة الخارجية والى اسواق خارجية اكبر، وهو ما مهد تدريجا الى تنامي نزعة التوسع والنفوذ والتدخلات في شؤون الدول الاخرى، من خلال القوة الناعمة او القوة الصلبة.

في هذا الاطار، يمكن ملاحظة ان النشاط الاميركي خلال القرن 19 في لبنان، تركز على النشاطات الدينية والتعليمية والادبية، من خلال تأسيس الجامعة الاميركية والجامعة اللبنانية - الاميركية. وعندما قطعت الدولة العثمانية العلاقات مع الولايات المتحدة في العام 1917، بسبب اعلان واشنطن الحرب على المانيا، لم يكن لبنان مستقلا وقتها، لكن ارتباطه بالحضور الاميركي تضرر لأن واشنطن سحبت تمثيلها القنصلي من لبنان، ولم تتم استعادة هذا التمثيل سوى بعد نهاية الحرب العالمية الاولى.

بحسب السفارة الاميركية في بيروت، فانه تمت ترقية الوكيل الديبلوماسي والقنصل العام الاميركي في لبنان وسوريا، جورج وادز ورث، الى رتبة وزير، في العام 1944، اي بعد الاعتراف الرسمي باستقلال الجمهورية اللبنانية. كما ان الديبلوماسي ورث كلف مهام المفوضيتين الاميركيتين في سوريا ولبنان، ولكن مقره كان في بيروت مع طاقم من 6 ديبلوماسيين، ولم يتحول هذا التمثيل الى مرتبة السفارة سوى في العام 1952 حيث اصبح الوزير هارولد ماينور اول سفير اميركي في لبنان.

اضافة الى ان الخطوة كانت مؤشرا على ازدهار وتنامي المصالح التجارية والاستراتيجيا الاميركية في لبنان، لدرجة ان السفارة الاميركية تحولت في اواخر الستينات من القرن 20، الى واحدة من اكبر السفارات في الشرق الاوسط، فانه لا يمكن فصل الدخول الناعم للولايات المتحدة الى لبنان في ذلك الوقت، عن خيوط المشهد الاقليمي الاوسع، والرؤية الاميركية الاشمل للمنطقة.

هناك نقاط اساسية تساهم في فهم الصورة وترابط خيوطها او تأثيرها المتبادل:

اولا، ان الحرب العالمية الثانية كانت قد وضعت اوزارها، واستهلت الحرب الباردة صراعاتها العالمية والاقليمية، ولا بد لواشنطن من ان تعزز تمركزها ومصالحها في المنطقة، ولبنان يحتمل مكانة مميزة ليكون احدى محطات هذا الحضور.

مبعوثان من اصول لبنانية فيما لم يزر اي رئيس اميركي لبنان

ثانيا، ان الصراع مع الاتحاد السوفياتي كان يتصاعد، وفي هذا الاطار جاء تشكيل "حلف بغداد" في العام 1955 والذي ضم بريطانيا والعراق وتركيا وباكستان وايران-الشاه.

ثالثا، كانت بريطانيا والولايات المتحدة قد نجحتا للتو في اسقاط النظام الايراني المنتخب ديموقراطيا لرئيس الوزراء احمد مصدق انتقاما منه على محاولة استعادة الايرانيين مواردهم النفطية.

رابعا، كانت المنطقة وخصوصا في الخليج، تكشف عن كنوز ثرواتها النفطية الهائلة، وهي السلعة الحيوية للقطاعات الصناعية الصاعدة في الولايات المتحدة.

خامسا، بسبب الازدهار النفطي في المنطقة، كان لبنان، من خلال بنوكه ومطاره وميناءه وخبراته المالية، مؤهلا ليلعب دورا كبيرا في القطاع الخدماتي في هذا الانتعاش.

سادسا، تعزز دور بيروت كمركز حيوي في المنطقة، بعد النكبة الفلسطينية العام 1948، وهكذا اصبح مرفأ بيروت بديلا من مرفأ حيفا، وبنوكه بديلة من البنوك الفلسطينية التي كانت في الريادة وقتها.

سابعا، كان لبنان من بين اكبر المتأثرين بقضية اللاجئين الفلسطينيين، ثم لاحقا بتداعيات ذلك سياسيا وامنيا واجتماعيا، لهذا فان الحضور الاميركي المباشر في لبنان خصوصا ان واشنطن وقفت مساندة لاسرائيل منذ لحظة اعلان تأسيسها، كان ضروريا ومهما.

ثامنا، كان مد القومية العربية يتصاعد في المنطقة، وكانت واشنطن ترى فيه خطرا على مصالحها الاقليمية، وعلى امن اسرائيل بالتأكيد، وقد ظهرت مؤشرات هذا الصعود القومي، مع اسقاط الحكم الملكي في بغداد في العام 1958، وبالتالي تداعى "حلف بغداد" سريعا، وقبلها نجاح "الضباط الاحرار" في اسقاط نظام الملك فاروق في مصر في 23 تموز 1952، وبدا سريعا ان التطبيع والتفاهم بين الثورة المصرية وبين واشنطن، لا امكانية لنجاحهما مع تضارب المصالح والرؤى.

لهذا، فان التدخل العسكري الاميركي في لبنان في تموز 1958، كان نتيجة بديهية ومتوقعة لكل العناصر السالفة الذكر. وقد كان مشهد انزال قوات "المارينز" على سواحل بيروت في 15 تموز من ذلك العام، نقطة تحول، بالنسبة لصورة العلاقات اللبنانية -الاميركية، اذ شكل انتقال الولايات المتحدة من مرحلة القوة الناعمة، الى مرحلة استخدام القوة الصلبة بشكلها العسكري.

صحيح ان الولايات المتحدة التي سمت انزالها في بيروت باسم "الخفاش الازرق"، بررت تدخلها العسكري بأنه بهدف وقف الاقتتال الداخلي، لكن الرئيس كميل شمعون كان طلب هذا التدخل لأنه كان يتهم معارضيه بأنهم يتلقون الدعم من الناصريين في مصر ومن السوريين. كما ان الرئيس شمعون كان ايد قبل ذلك "حلف بغداد" من دون الانضمام اليه رسميا، وكان يحظى بعلاقات جيدة مع نظام الملك فيصل في بغداد ومع شاه ايران محمد رضا بهلوي.

وكانت شرارات الازمة اللبنانية بدأت تتشكل مع قيام بريطانيا وفرنسا بمساندة اسرائيل عسكريا في غزوها لمصر في حرب العام 1956، حيث طالبت المعارضة اللبنانية الرئيس شمعون بقطع العلاقات مع الغرب ردا على ذلك، ولما رفض استقال رئيس الوزراء عبدالله اليافي ووزير الدولة صائب سلام تحت ضغوط شعبية عارمة. اضيف عامل آخر الى التوتر اللبناني والذي شجع واشنطن على التدخل عسكريا، وهو اعلان الوحدة بين جمهورتي مصر وسوريا التي حظيت بتأييد قوى المعارضة اللبنانية، خصوصا من كمال جنبلاط الذي كان يرتبط بعلاقات قوية ◄

◄ مع جمال عبد الناصر والاتحاد السوفياتي. بتدخلها العسكري في لبنان، تكون الولايات المتحدة، وبرئاسة الرئيس دوايت ايزنهاور، قد طبقت فعليا "عقيدة ايزنهاور" (المعلنة في العام 1957)، والهادفة الى مواجهة نفوذ الاتحاد السوفياتي والتي تسمح لاي دولة طلب المساعدة العسكرية او الاقتصادية من واشنطن في حال تعرضها لـ"التهديد".

مع اندلاع الاقتتال الداخلي، اوفدت واشنطن المبعوث الخاص روبرت مورفي للتوسط ومحاولة تسوية الصراع الذي كاد يتحول الى حرب اهلية شاملة، حيث تمكن من تمرير تسوية تقضي بعدم التجديد للرئيس شمعون لولاية ثانية، وانتخاب قائد الجيش وقتها فؤاد شهاب كرئيس للجمهورية، بينما انسحبت قوات "المارينز" في 25 تشرين الاول 1958.

ستتحول الحرب الاهلية المندلعة في العام 1975 الى مناسبة جديدة لتراجع النفوذ الاميركي وتقدمه في المشهد اللبناني، خصوصا بعد اغتيال السفير الاميركي في بيروت فرنسيس ميلوي برفقة الديبلوماسي الاميركي روبرت اولاف، ثم تفجير السفارة الاميركية في نيسان 1983 حيث قتل 49 موظفا في السفارة كما اصيب 34 بجروح. وبعدما تم نقل السفارة الى منطقة عوكر، استهدفت بتفجير جديد في ايلول 1984، ادى الى مقتل 11 وجرح 58، ثم اغلقت السفارة بالكامل وسحب العاملون فيها في ايلول 1989، ولم يعاد فتحها سوى في تشرين الاول العام 1990، بعد انتهاء الحرب الاهلية واتفاق الطائف في 30 ايلول 1989 الذي كانت ترعاه مباشرة المملكة العربية السعودية بالاتفاق مع دمشق، فيما لعبت واشنطن ادوارا من خلف الكواليس لدعمه.

رغم الانتكاسات الامنية التي ميزت الحضور الديبلوماسي الاميركي في لبنان، الا ان المفارقة أن الادوار الديبلوماسية الاميركية في الازمة اللبنانية، لم تتلاش. فقد دفعت واشنطن بمبعوثها اللبناني الاصل فيليب حبيب الى كواليس الحرب في العام 1982 حيث توسط لايجاد نهاية لحرب الغزو الاسرائيلي الذي وصل للمرة الاولى الى بيروت، تحت شعار محاربة منظمة التحرير الفلسطينية. لكنه كان لعب دورا في هدنة سابقة في العام 1981 ايضا. كانت مهمة حبيب اللبنانية شائكة بالنظر الى تعدد الاطراف الداخلية اللبنانية المتشرذمة، وتعدد القوى والفصائل الفلسطينية والاحزاب المتحالفة معها، والاحتلال الاسرائيلي لمناطق شاسعة من البلد، والنفوذ السوري، والادوار العربية المختلفة والمتباينة، حتى انه كان على صدام مع وزير الخارجية الاميركي دوغلاس هيغ، المعروف بموقفه المؤيد لاسرائيل بالكامل، لدرجة ان مهمة فيليب حبيب كادت توصف بالمستحيلة، لكنه تمكن من ابرام اتفاق قضى بخروج مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت.

لم تقتصر الادوار الاميركية على العمل الديبلوماسي والسياسي مع بيروت، اذ ان دعمها التقليدي لاسرائيل جلب لها الكثير من العداء. في تشرين الاول 1983، استهدفت شحنتان مفخختان مقر قوات "المارينز" والقوات الفرنسية مما اوقع في صفوفهم مئات القتلى والجرحى، وهو هجوم جاء مع مرور نحو عام على انتشارها، وخروج مقاتلي منظمة التحرير من بيروت واغتيال الرئيس بشير الجميل ووقوع مجزرة صبرا وشاتيلا، ولم تكن قد غادرت لبنان. كما ان الهجوم المزدوج جاء بعد اشهر على توقيع اتفاق "17 ايار" مع اسرائيل برعاية اميركية. وكان الهجوم ضربة قاسية للسيطرة العسكرية الاميركية في لبنان لدرجة ان نائب الرئيس الاميركي وقتها جورج بوش الاب، زار موقع الهجوم بعده بنحو يومين، كما جاء ايضا الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران. ورغم الخلاف داخل ادارة الرئيس الاميركي رونالد ريغان، خصوصا بين وزير الخارجية ووزير الدفاع، حول كيفية الرد، الا ان ريغان ارسل السفينة "نيوجيرسي" التي قصفت العديد من الاهداف.

في الثمانينات، لم يغب ريتشارد مورفي الذي سبق له ان تولى منصب السفير لدى دمشق وتولى منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الادنى وجنوب اسيا، عن المشهد اللبناني، حيث انه كان يواكب الجهود المبذولة من اجل حلحلة ازمة الحكم في لبنان، وتحديدا في العام 1988، اذ كان من المفترض ان تنتهي فترة حكم الرئيس امين الجميل في

ايلول من ذلك العام. وقال مورفي في مقابلة بعدها باعوام ان نظام الرئيس السوري وقتها حافظ الاسد كان يفضل مخايل الضاهر، وكان هناك 15 مرشحا مارونيا للرئاسة، وان عبارة "الضاهر او الفوضى" انه كان يقصد من خلالها ان السوريين قد يختارون الفوضى اذا لم يتحقق خيارهم.

اطلت الديبلوماسية الاميركية مجددا من خلال الوزير وارن كريستوفر الذي ساهم في التوصل الى ما عرف باسم "تفاهم نيسان" عام 1996 لوقف عدوان "عناقيد الغضب" الذي استمر 16 يوما، والذي وصفه كثيرون بأنه شكل انتصارا ديبلوماسيا للبنان.

كما تابعت واشنطن حضورها السياسي في لبنان من خلال زيارة وزيرة الخارجية الاميركية مادلين اولبرايت التي جاءت الى بيروت في 15 ايلول 1997 لزيارة قصيرة استمرت 4 ساعات فقط، في ختام اول جولة اقليمية لها، وتحدثت عن رغبة الولايات المتحدة في تعزيز "حكم القانون" في لبنان. لكنها قالت ايضا ان "لبنان لا يزال يشكل خطرا على الاميركيين" وان اي اتفاق سلام مع اسرائيل يجب ان يضمن استقلال لبنان وسيادته، وان يضمن لاسرائيل امنا حقيقيا.

كان من اللافت ان زيارة اولبرايت وتصريحاتها هذه جاءت في وقت كانت اسرائيل لا تزال تحتل "الشريط الامني" في الجنوب، والذي تجاهلته اولبرايت. لكنها في المقابل، طالبت خلال لقاء في "الفوروم دي بيروت" الحكومة اللبنانية "بأن تقدم الى العدالة اولئك الذين قاموا بأعمال ارهابية ضد الاميركيين والاجانب في فترة السبعينات والثمانينات".

> **اول قنصل اميركي العام 1833 والسفارة الاولى العام 1952**

ومنذ استخدام واشنطن سياسة المدافع مع لبنان في الثمانينات، مرورا بمهمات كريستوفر واولبرايت وصولا الى كوندوليزا رايس التي انحازت بالكامل الى العدوان الاسرائيلي خلال حرب العام 2006، وزياراتها المتكررة الى بيروت، تطبيقا لرؤى تيار المحافظين الجدد وادارة الرئيس جورج بوش الابن حول المنطقة ودور اسرائيل فيها وممارسة السياسة الخارجية الهجومية، كانت المطالب والتوقعات الاميركية من لبنان وحكوماته، تتبلور اكثر فاكثر مع الوقت، واصبحت تتجسد بوضوح في الديبلوماسية التي تنتهجها ادارة الرئيس دونالد ترامب حاليا حول العالم، بما في ذلك لبنان من خلال الضغوط الضمنية التي يحملها المبعوث الاميركي توم براك الى بيروت، وتصريحاته التي في احيان كثيرة لا تثير الاطمئنان بين اللبنانيين، كقوله مثلا ان واشنطن ليست في موقع يسمح لها بالضغط على اسرائيل لفرض التزامات عليها بما في ذلك انتهاكاتها لوقف اطلاق النار المبرم مع لبنان برعاية اميركية (ادارة جو بايدن السابقة).

لعل من ابرز مظاهر سياسة "ديبلوماسية القوة" التي صارت واشنطن تنتهجها بوضوح اكبر مع لبنان، والتي يعتقد العديد من الخبراء انها ساهمت في اضعافه اقتصاديا، هي بدء فرض عقوبات على القطاع المصرفي فيه، خصوصا منذ العقوبات التي فرضتها وزارة الخزانة الاميركية على البنك اللبناني الكندي والتي ادت الى اغلاقه، والتي تبعتها عقوبات على بنك "جمال ترست" في العام 2019، أي قبل اسابيع من انفجار الازمة المعيشية وانهيار الليرة واندلاع تظاهرات تشرين الاول، والذريعة دائما هي استفادة شخصيات من النظام المالي لصالح حزب الله. كذلك جرى فرض عقوبات على عشرات الافراد والكيانات والشركات اللبنانية، وغالبيتها بالتهمة نفسها.